تقدم المدى الثقافي اربع دراسات تتناول ادب الروائي غائب طعمة فرمان واهميته في الادب العراقي من عدة جوانب .

غائب طعمة فرمان .. مواقف وذكريات عنه

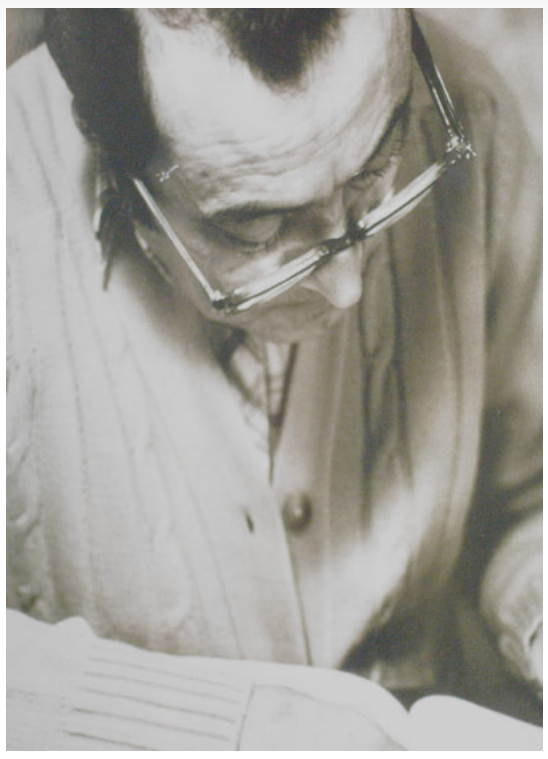

ياسين النصير

(١)

لم تكن الرواية العراقية على درجة من النضج الفني إلا على يد غائب طعمة فرمان الكاتب الذي اعتمد في رؤيته على ثلاثة عوامل بنائية مهمة.

العامل الأول هو ثقافته الشعبية فقد ارتبط الأستاذ المرحوم غائب بالحياة الاجتماعية الشعبية من خلال عمله في الصحافة وخاصة في باب أجوبته على رسائل القراء والسائلين أو من خلال ارتباطه بالتيار اليساري العراقي الذي وضع المجتمع العراقي كله أمام المثقفين عندما حول قضاياهم الفكرية والحياتية إلى مطالب اجتماعية وسياسية.

العامل الثاني هو فهمه الأسلوب الواقعي الاجتماعي الذي بدأه الروائي الكبير نجيب محفوظ. وقد تتلمذ غائب على يده فترة طويلة عندما كان يدرس في القاهرة سنوات شبابه فقد وجد في رواية نجيب محفوظ الطريقة الأسلوبية التي تعاين واقع المجتمع وتعكسه بطريقة سهلة ومفهومة حيث البناء ينبع من حقائق الحياة اليومية وتتم صياغته بأسلوبية مباشرة وبجمل فصيحة ولكن شعبية العبارة.كما كانت ولا تزال روايات نجيب محفوظ تجمع بين الرؤية التاريخية والواقعية المعيشة.

العامل الثالث هو الوعي بأهمية السرد الفني والحوار بين الشخصيات. فقد أولى غائب طعمة فرمان الحوار الديمقراطي بين شخصيات روايات أهمية كبرى، ووجد فيه الطريقة التي يوصل بها رأيه إلى القارئ منطلقا من تعدد الأصوات الاجتماعية لفئات المجتمع عندما تعالج قضية كبرى. لا بل جعل من تعدد الشخصيات طريقة فنية في كل رواياته. ففي رواية النخلة والجيران وهي باكورة النتاج الروائي المتميز نجد خمس شخصيات تتقاسم بنية السرد واستمرت هذه البنية في رواياته الأخرى: خمسة أصوات والمخاض وآلام السيد معروف والقربان وظلال على النافذة والمرتجى والمؤمل والمركب. فأصبحت أسلوبية منفتحة على التيارات السياسية والاجتماعية والثقافية، ودالة على أن الرواية العراقية تحمل رأيا مرتبطا بالواقع. فالحوار بين فئات المجتمع هو جوهر الفنية البنائية لروايته دون أن نجد أدنى علاقة بين المتحاورين والسلطة. وهذه نقطة مهمة هي أن موقف كل شخصياته كان مع المجتمع. وليس فيها أي صوت للسلطة الحاكمة. وعندما يبني غائب طعمة بيت رواياته في المحلة الشعبية لا يوصلها بخيوط بالمركز سلطة كان هذا المركز أم حزبا بل يتعامل مع المحلة بوصفها كونه ومدينته المصغرة.

(٢)

في التجربة الروائية العراقية التي سبقت نتاج غائب طعمة فرمان نجد عددا قليلا من الروايات المهمة التي أسست لرؤية فنية يمكن أن تتطور لاحقا. بينها ما كتبه محمود أحمد السيد وخاصة في روايته البكر " جلال خالد ١٩٢٣" التي كانت صوتا حداثيا للعلاقة بين الفن والمجتمع. ومنها رواية (مجنونان) لعبد الحق فاضل ورواية (اليد والأرض والماء) لذنون أيوب وغيرها من الروايات القصيرة التي تميزت بنفس اجتماعي ورؤية فنية متطورة. وإلى مرحلة الستينيات نجد أن فن القص العراقي يتركز في القصة القصيرة والرواية وقد برز فيهما القاصان المبدعان فؤاد التكرلي وعبد الملك نوري وهما قطبا الحداثة في الخمسينيات التي أسست لاحقا لفن القصة الجديدة كما يقول الدكتور الناقد علي جواد الطاهر.

وفي أواسط الستينيات ظهرت النخلة والجيران رواية تتحدث عن العلاقة بين المدينة والريف من خلال نماذج اجتماعية تتراوح أمكنتها وفاعليتها بين محلة في مدينة ومسارات عمل في الريف وفي الجيش. وعماد هذه الرواية الناس البسطاء الذين تتراوح همومهم بين العمل والسياسة. وتعد النخلة والجيران في كل مفاصلها الفنية والفكرية نواة حملت في نتاج مؤلفها لاحقا تفاصيل المجتمع وتطوره. ففي المحلة الشعبية نجد التغيرات البنائية قائمة في جوهر العلاقة بين السلطة القامعة والناس، بين العمل اليدوي والعمل في مؤسسات الجيش، بين خبز التنور وخبز الفرن، وبين التعامل بالعمل النظيف والتعامل بالسوق السوداء، بين أن يكون الإنسان أداة بيد السلطة، وبين أن يكون مناضلا شريفا يقف مع الجيوش التي تتقدم للقضاء على النازية في العالم. هذه الأرضية الواسعة والمتداخلة كانت نوى للكثير من الأفكار اللاحقة لرواياته وكتاباته.

في روايته الثانية (خمسة أصوات) تعامل غائب مع خمس شخصيات تختلف في الآراء وتتفق في المواقف الكبرى. كلهم من مثقفي الشعب هذه الفئة التي حملت على عاتقها الصوت الوطني النضالي. ولكنها عندما تجد القضية متسعة نجد اختلاف الآراء عنها هو جزء من وعي القاص لحقيقة التعددية في المجتمع. ومع القضايا الكبرى كانت الشخصيات محملة بما هو يومي ومألوف من حب وفقر وحاجة ومرض وطلاق ورسائل ومواقف. وقد تحولت (خمسة أصوات) إلى مسرحية وفلم كانت نواة جادة للمسرح و للسينما العراقية. في روايته المخاض يعالج غائب طعمة فرمان الأفكار الكبيرة التي نمت في مجتمع الستينيات في العراق. وفي روايته القربان يعالج العلاقة بين شخصيات ثورة تموز عام ١٩٥٨ والمجتمع من خلال تداخلات سياسية بدأت منذ ذلك الوقت تخطط للقضاء على ثورة تموز. وتمثلت لاحقا بما حدث في العراق عام ١٩٦٣ وفي عام ١٩٦٨ وصولا إلى قيادة المجتمع العراقي بمجيء الدمار والتخلف. بعد عن كان العراق في مقدمة دول العالم الثالث الناهضة. في روايته المرتجى والمؤمل يعالج غائب العلاقة بين خمس شخصيات تعيش كلها في المهاجر وما سببته الغربة ان الوطن من مشكلات. أما روايته القصيرة آلام السيد معروف فتعالج العلاقة بين الموظف البسيط والمجتمع من خلال شخصية مفردة وصوت غني بالدلالة تحيط به شخصيات مفترضة وواقعية هي سداة لحمة النص والواقع. وفي روايته الأخيرة المركب يعالج غائب الواقع العراقي بعد التغيرات الدموية عليه من خلال سفرة جماعية لموظفين في قارب إلى جزيرة أم الخنازير في بغداد ليعالج العلاقة المفككة والمتداخلة بين أناس وقفوا على واقع مدمر.

(٣)

في هذه العجالة النقدية ونحن نطل على نتاج أهم روائي في تاريخ العراق المعاصر نذكر أن سنوات كثيرة قضاها غائب في موسكو حيث الاغتراب مادة وعملا كان جزءاً من شخصيته. ولكن هذه الغربة الطويلة لأكثر من ثلاثين سنة لم تجعل فنه غائبا عن مشكلات المجتمع فقد كان يرحمه الله يمتلك أرشيفا واسعا عن العراق من خلال الصحف والرسائل والأحداث التي تصله ومن خلال قراءاته الكثيرة للمؤلفات الاجتماعية المتوفرة في مكتبات موسكو. وقد أعانته الترجمة لأمهات الروايات الروسية الكلاسيكية والحديثة على نقاء أسلوبه ودقة تمكنه من إدارة أحداث رواياته والسيطرة على روحها الفنية وتداخلات الشخصيات. وقد كان يرحمه الله يوكلني دائما أن أجمع له مؤلفاته وما كتب عنه وما كتبه واللقاءات التي جرت معه. فقد كان يرسل لي من موسكو كل لقاءاته وكتاباته وروایاته. وقد تجمع لدي منها الكثير شكلت دراسة كتبتها عنه ولم تنشر بعد أعطيتها كنواة للأردني المدعو خالد المصري ليكتب دراسته عن غائب طعمة فرمان. إلا إن هذا قد أنكر لاحقا كل أوراقي التي بنى عليها دراسته في عام ١٩٩٥ ولم يعد لي الوثائق والمراسلات التي أعطيتها له إلا المقابلات فقط مع الأسف الشديد.

تشكل روايات غائب طعمة فرمان في الثقافة العربية رافدا مهما من روافد العلاقة بين الثقافة والمجتمع. ليس لأنها تستمد أحداثها من تغيرات المحلة البغدادية، بل لأنها تعالج تغيرات المكان والزمان معالجة من يرصد التحولات في كليهما. فالمحلة التي يتعامل معها لا تبقى على تكويناتها القديمة دائما بل يصيبها التغيير كلما مر السرد الفني عليها. هذه الرؤية التطورية للعلاقة بين الفنية والواقع. جعلت أسلوبه متصاعد النبرة، متغير البنية متدفقاً كما لو كان جريانا لا ينقطع. ولم تنته رواياته بنهايات مغلقة بل تبقى نهاياتها مفتوحة على احتمالات المجتمع ومتغيراته. والحديث عن تجربة غنية كتجربة غائب طعمة في مثل هذه العجالة أمر غاية في الصعوبة ويكفينا هنا أن نشير إلى أهمية هذا الروائي حتى بعد غيابه.

فقد كنت أول من أبلغ بوفاته عن طريق الصديق الدكتور عز الدين رسول. وقد أقمنا له حفل تأبين خاصاً في بيت أخيه في بغداد وكان الحفل مراقبا من قبل أجهزة الأمن ومثقفي السلطة التي لم تنشر صحافتها إلا خبراً مقتضبا عن وفاته و ...بعد فترة.

الزمان والمكان في روايات غائب طعمة فرمان

ناجح المعموري

يعترف د. علي ابراهيم منذ البداية بالاسباب الكامنة وراء اختياره الروائي غائب فرمان مع كونه يشترك مع كثير من الروائيين العرب بخصائص فنية واسلوبية مشتركة، ويقدم الاجابة على سؤاله قائلا انه لا يفضله على غيره من الروائيين العرب، لكنه يعرفه جيدا بسبب الاطلاع الكامل على اعماله الإبداعية وقراءة كل ما كتب عنه. مضاف الى ذلك كله، سبب مهم ووجيه وهو معرفة الناقد الأماكن التي كتب عنها الروائي المبدع غائب طعمة، أي يؤشر اهمية المكان الذي انطوى على وظائف اشار اليها جيدا. ومعرفة الناقد الاماكن أو الامكنة التي عاشها فرمان وكتب عنها، و اوجدت علاقة فكرية بين الناقد والنصوص الروائية ومع تواريخها الاجتماعية / والسياسية وما نتج عنها من خصائص ساهمت وصاغت عناصر الخطاب السياسي العراقي قبل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ويعترف الباحث بأن تميز المبدع غائب فرمان بين حشد من الروائيين هو الفاعل والأكثر تحفيزا له على تناوله بالبحث والدرس.

وأدرك بأن أعمال غائب طعمة فرمان تنطوي على فرص بحثية كثيرة، منها مثلا: السيرة الذاتية، المرأة في روايات غائب، الشخصية في رواياته، الغربة، اللغة والحوار، السرد الأدبي وشعرية التفاصيل وغيرها من المواضيع الكثيرة، لكنه أنحاز الى الزمان والمكان في رواياته، وهما من أهم المجالات أو العناصر الفنية في السرد وحصراً في القصة والرواية، لأنهما وبسبب إهتمامات الباحث الفكرية، يضيفان جوانب عديدة . كما قلنا . ذات علاقة حميمة ومباشرة مع الأجتماعي والسياسي، ويوفر هذا فرصة للباحث للإمساك بالدلالات الفنية والأخرى الفكرية التي رشحت عن زمان محدد ومعروف وساهمت الأشخاص بصياغته أمكنة تتبدى من خلال ملامحها تفاصيل المشهد / أو المشاهد التي لعبت دوراً في إضاءة حياة الناس والصراعات التي كانت تجري وتدور فيما بين الأشخاص والعوائل والأسر الشعبية، حتى بالإمكان القول ان روايات غائب مرآة توفر فرصاً عديدة لقراءة حياة الناس، ومكونات المجتمع العراقي وتنوع الوظائف.

كما بالإمكان الاعتماد عليها في كشف واضاءة ما لم يدرس من قبل، وتحديداً المجال الأنثروبولوجي، ولذا نستطيع القول ان روايات غائب طعمة فرمان هي أصدق مدونات عن حياة الشعب العراقي وصراعات قواه وأحزابه وحركاته السياسية في العديد من مراحل حركة النضال من أجل التحرر الوطني وحتى بعد تحقق هذه الوظيفة الوطنية /، ظلت اهتمامات المبدع غائب طعمة فرمان بالمكان وتفاصيل حياة الناس وملاحقة الهامش الذي أنغمر الروائي في متابعته والغوص وراءه.

ويؤكد الباحث بأنه وجد في موضوعة (الزمان والمكان في روايات غائب طعمة فرمان) مادة جديرة بالاهتمام والبحث بخاصة أنها لم يجر تناولها بشكل واف، مع أمكان تناول الموضوعات التفصيلية الأخرى وهذا ما لاحظناه فعلاً في تفاصيل البحث العلمي الدقيق والمركز ولا يحاول الباحث الإدعاء بتفرد هذا الانجاز وإنما يتعامل معه بوصفه مكملاً، وإضافة إلى الكثير من البحوث والدراسات التي كتبها عدد كبير من النقاد.

وتوقف الباحث في البداية عند السؤال التقليدي الذي أثارته الكثير من الدراسات هل للرواية جذور في التراث الأدبي العربي؟ وأكدت الآراء أن الرواية نشأت وليدة التمركز الغربي في مجال الرواية وآراء أخرى، غادرت الهيمنة الغربية وأشرت التأثير البارز والكبير للحكايات / المقامات والأمثال في تشكل سرد عربي خاص جديد.

وهذا ما توصل إليه د. عبد الله إبراهيم في كتابه المهم السردية العربية ورسالة الدكتور لؤي حمزة عباس الخاصة بدراسة العلاقات السردية في الأمثال.

لكن الباحث الدكتور علي إبراهيم لا ينكر المجال الحيوي للسرد العربي القديم ويؤمن بأن السرد وروح الموروث العربي قد لعب دوراً بارزاً في دعم وبروز روايات وقصص لها صلة مباشرة ووثيقة بالانجاز العربي القديم، وأشار إلى تعايش السرد التقليدي مع الرواية الكلاسيكية والمح إلى اتجاه ثالث تعايش مع الاتجاهين.

أن د. علي إبراهيم شديد الصلة بالتوصلات الفكرية والفنية لعدد من المفكرين والنقاد المعروفين في مجال دراسة الرواية ولعل أهمهم وأكثرهم حضوراً هو جورج لوكاش الذي تعامل مع الرواية بوصفها نتاجاً أو ملحمة للمجتمع البرجوازي ويتفق مع الباحثين العرب الذين اعتبروا رواية زينب لمحمد حسنين هيكل هي بداية للرواية العربية المتأثرة بالمنجز الغربي.

وأشرنا ملاحظة مهمة في هذا البحث وهي العلاقة الاجتما . سياسية الفاعلة والتي لعبت دوراً في ظهور القصة ويقترن ذلك بواحد من أبرز الأحداث الوطنية في تاريخ العراق السياسي وهو ثورة العشرين عام ١٩٢٠ ,

كما تكشف المحاولات الرائدة لعدد من الأسماء الأدبية أبتداء بمحمود أحمد السيد والعديد من المحاولات الأولى التي تبدت عن بساطة وسذاجة أيضاً.

وشخص أيضاً التحولات البارزة في أربعينيات القرن الماضي وما أنتجته الحرب العالمية الثانية وأكد البروفيسور د. زم فاسيلف قائلاً: بأن الباحث قد لاحظ السكون المصاحب للقصة والرواية خلال تلك المرحلة والمح إلى أن الخمسينيات هي المرحلة الاجتما . سياسية التي أنتجت نموذجاً في الكتابة الأدبية ممثلاً لها بعدد من الأسماء المهمة: أدمون صبري، حازم مراد، نزار عباس، فؤاد التكرلي، عبد الملك نوري، مهدي عيسى الصقر، محمود عبد الوهاب وغيرهم.

أما الدكتور ك. ف. ن توفانوف فقد أشار في مقدمته للبحث الى ان الأستاذ علي إبراهيم تمكن بذكاء بارز من أن يمسك نقاط التقاطع الأساسية بين المعارف الأدبية في مادة تسمح بمتابعة النظريات العامة لحساب القوانين في أبداع ألمع الروائيين العرب حسب ما يقال.. وأهمية هذه المادة ومغزاها تتمثل بوضع خطوط من الحقائق المسلم بها.

كان الأسلوب الأدبي / الإبداعي للروائي غائب طعمة فرمان يرتكز على المحاولة الدائمة لإعادة ذكريات الوطن واستحضارها على الرغم من المسافة الزمنية الطويلة التي تفصل بين الروائي ووطنه وقد توزع البحث على:

استهلال وبابين مع استنتاجات وببلوغرافيا ولا بد من الإشارة ولو بشكل سريع للتوصلات النظرية المهمة خاصة في فصل (الزمن عند غائب) وهو فصل أهتم بالمجالات النظرية والفلسفية الخاصة بالزمن وبعض المفاهيم ذات الصلة مثل المزامنة، والمناوبة،الحوار،المفارقة،التسارع، التباطؤ كما درس د. علي إبراهيم عددا من المجالات الموضوعية التي كان لها دور واضح في رواياته العديدة. ومن تلك المجالات / الموضوعات الفاعلة وما انطوى عليه الزمان / المكان من دلائل فكرية وفنية، ولعل أهم تلك المجالات المكونة عنصر أساسي في السرد هو المكان، حيث تمكن من رسم صورة دقيقة جدا للمكان الروائي / بغداد بمحلاتها وأزقتها، وأماكن صاغت ذاكرة الشخوص الفنية، بحيث لا يمكن للمتلقي عزل شخوص فرمان عن ذاكرة بغداد / الأماكن فيها وما انطوت عليه من صراع اجتما . سياسي استجاب للعلاقات الموزعة في رواياته لطبيعة المرحلة السياسية وتأثيرات سوسيولوجية، وبلغ الأهتمام بهذا المجال حداً واضحاً ومتميزاً، بحيث تطرف فيه غائب طعمة فرمان وجعل من معطيات المكان / الزمان والفواعل الموضوعية نمطيات واضحة، حاول تغليفها برمزية قصدية، لم تفتح أمام بعض الشخوص فضاءات أوسع وأكثر تعبيراً ودلالة.

ولأن المكان ملمح عضوي في الرواية ويبدو لدى غائب مهيمنا كلياً ومركزياً، لأن الحياةتبدو فيه وتنغرس وتنمو حتى تتضح ملامح شخوصه التي تأخذ منه مؤثرات عديدة وتضفي عليه بعضا حيويا من مكوناته، أي بمعنى بالأمكان العودة الى روايات غائب طعمة فرمان والتعرف على هوية مرحلة من المراحل الفكرية والسياسية، وايضا توفر فرصة جيدة لتحديد الأطار السوسيولوجي وتشابكاته مع الثقافي / السياسي. إنها روايات مرآتية، واضحة ودقيقة. كما أعتقد بأن روايات غائب أمينة في كشوفاتها لمستوى ونوع التبادل الأتصالي / المجتمعي عبر السرد والحوار، وما تضمنته رواياته من سرود وحواريات وهي بغدادية اللغة ولن تكون الا بالشكل الذي كانت عليه وتبدت فيه، حتى بإمكان الدارس الانثربولوجي الأمساك بتفاصيل كثيرة جداً خاصة بحياة الإنسان وعلاقاته وموروثاته والآليات المتحكمة بالعلاقات المجتمعية، حتى المكان لم يكن بمعزل عن التأثيرات الموضوعية الكثيرة الحاصلة آنذاك، لذا طرأت تغيرات على الأمكنة البغدادية الموظفة فنياً، لأن غائب طعمة فرمان يريد من المكان أن يكون مرآة خاضعة لمستويات الصراع ومستبيحا لها، لأن المكان / الذاكرة لن يظل ثابتاً بحدوده أو ذاكرته الثقافية، لأنه متجدد، ولاحظ د. علي إبراهيم حصول هذه التحولات المكانية وعلى سبيل المثال في رواية النخلة والجيران حيث قرر صاحب الإسطبل بيع الخيول وتحويل الطولة الى معمل، بعد شيوع استخدام السيارات بديلاً للعربات المسحوبة بالخيول. وأيضاً الأشارة الى مقاومة الناس معامل الصمون التي جاءت للقضاء على خبز التنور، كما لم يستوعبوا إزالة بيوتهم الخربة ومحلاتهم القديمة وبناء غيرها.

ولعب التطور الإجتماعي بوضوح في انفتاح الحياة على الجديد الحضاري وكان غائب طعمة فرمان يؤشر لحظة نشاط البرجوازية الوطنية ودخول الصناعات الحديثة التي ساهمت بالقضاء على عديد من المهن والحرف ووضعت حداً فاصلاً بين القديم / والحديث.. إنها لحظة تحديث أولية في الحياة العراقية ونشوء صراع روحي / وثقافي بين القديم والجديد. وأهتم د. علي إبراهيم بالعلاقة الثنائية بين المنفى / والمكان، المنفى الذي تزدوج فيه اللغة كما قال أدوارد سعيد، وتعيش الذات توزعاً وانشطاراً بين اللسان الأول والثاني، آلية التفكير بالأول والحديث بالآخر، حتى ثقافة الفرد كما قال سعيد تكون وتظل خاضعة لمراكز تكونات الهوية الأولى، لذا كان واضحاً للقارئ اكتشاف الحميمية بين المكان الاول ولغته وتأثيرات المنفى على ذلك، ولم يكن غائب بعيدا عن هذه التأثيرات بعد التقادم في المنفى حيث كشفت مراسلاته مع الروائي عبد الرحمن منيف عن اشتياقات غائب لممارسة الأتصال بلغته البغدادية الاولى لحظة نزوله المطار، أنه يريد اختبار ذاكرته / ويجري فحصاً لهويته وعناصرها البغدادية وقال د. علي إبراهيم: المتتبع لنتاجات غائب طعمة فرمان سواء أكان قارئاً أو ناقداً يتلمس تأثير المنفى على رواياته الأخيرة، إذ كلما طال زمن المنفى، ضعف إحساسه بالمكان ووهنت ذاكرته في أن تمسك بالتفاصيل الضرورية التي تعطي صورة حية لمسرح الأحداث هذه الصورة المعروفة في النخلة والجيران / وخمسة أصوات / المخاض / القربان / ظلال على النافذة /. لأنها كانت باهتة في روايته المركب، لأنه لجأ الى العموميات عند وصفه المكان، أو يلجأ الى الاسترجاع ليعطي صوراً قديمة يعرف تفاصيلها جيداً.

وهذا يعني بأن المنفى تدخل كثيراً في حرف العلاقة مع أمكنة غائب طعمة فرمان ومارس تأثيرا مهماً وقوياً على عناصره وتفاصيله التي كان لها دور ثقافي / وجمالي في رواياته الأولى، حيث تسيد المكان الذهني / والتجريدي الفاقد لحرارته وقوته في بناء وتشكيل شخوصه الفنية. وأدرك غائب بأن الذاكرة تخسر كثيرا من حيويتها وطاقاتها أذا كانت معزولة ومنفية. لأن الاستذكار بالتتالي يشحب وتغيم الصور والمشاهد، وعلى الروائي " كما قال غائب طعمة فرمان . أن يظل مرتبطا بحبل سري / عميق مع مكانه الذي يريد الاشتغال عليه، وأن يعرف تفاصيل حياتية ويومية عما يحصل ويجري فيه ولذا أكد الباحث على غياب الملامح المكانية في روايته (المركب) وعندما امتدت به الغربة وبعد خمس سنوات، صار له تصور آخر، فبدأ يعتقد أن الأديب الذي لا يتغذى يومياً مما تنشره الصحف والمجلات وما يغنى من الحان، وما يقال من فكاهات ونكات، وكل ما هو جديد، أن الأديب هذا يخسر الكثير، وربما تتكون عنده لغة خاصة لا يفهمها الناس.

لذا بالأمكان التوصل لهذا الرأي في روايات غائب الأولى وهي ضاجة بها والمانحة لها محليتها وخصوصية تكونات شخوصه وهوياتهم. وهو كغيره من المبدعين مدرك الخطورة الكامنة في المنفى وتأثيراته القاسية على الذاكرة وقال: أنا كتبت رواياتي الثلاث في المنفى وقد أكون أكثر التصاقاً بالواقع العراقي من غيره، ولكن لا يمكن بشكل عام القول أن للغربة فضائل، الغربة اذا كانت لمدة قصيرة ولمدة معينة يمكن إن تكون لها فضائل، أما أن تكون غير محددة ومعروفة متى تنتهي، أعتقد أن فيها مساوئ أكثر.

تجربة اخراجية لـ (آلام السيد معروف)

د / محمد حسين حبيب

تحتل هذه الرواية مكانتها المتميزة بين روايات غائب طعمة فرمان لكونها تتحدث في الغالب منها عن شخصية الكاتب نفسه والكشف عن احباطاته الحياتية التي تراكمت عليه حينها مع تعديلات واضافات فنية بحسب الحاجة للمتن الروائي وبنيته الحكائية.

شخصية معروف وهي محور الاحداث لها تطرفها الحياتي بنظر الآخرين ممن حولها كونه يعتقد ان هذا التراكم من الاخطاء والتناقضات واللا عدالة ينبغي حله وفوراً فيلجأ للمقاومة اليائسة الأمر الذي أدى إلى شرود الشخصية من واقعها باحثة لها عن ركن آمن ومنعزل عن الجميع.. فوجد السيد معروف في الغروب الحياة الذي يبغي.. لحظة غروب الشمس هي لحظة الحياة عنده لدرجة العشق والتصوف مع مثل هذا النوع من الحب الذي يبدو غير مألوف بنظر الآخرين.. وبالتالي تحول إلى شخصية غامضة امام جميع شخصيات المسرحية / الرواية.. بدءاً من امه واخواته واصدقائه في الدائرة حيث التصادمات المستمرة وعدم الاستجابة منهم إليه وبالعكس..

اعتمدت في اعدادي النص المسرحي على هذه العزلة الفكرية والروحية ما بين معروف والآخرين.. ما بين الحلم في السعي لعالم نقي عادل خالٍ من العوز والفاقة والظلم والمصالح، وبين واقع يصر ناسه على البقاء على امراضهم الاجتماعية ونفاقهم ومصالحهم.. وبين هذا وذاك حاولت خلق الصراع المسرحي بين كتلتين لا يمكن ان يلتقيا إلا بانتهاء واحدة وخلاصها..

وبرغم فشل الشخصية الروائية في مواجهة هذا العالم الفاسد.. إلا انني وفرت لها انتصاراً مسرحياً بالتجسيد الاخراجي حيث الخلاص من عالم الواقع الشائب والرحيل ارادياً نحو عالم الحلم / الغروب.. بحثاً عن خلاص منتظر يقطن في الجانب الآخر من الحياة.

معالجتي الاخراجية اعتمدت على التجريبية الشعبية في العرض المسرحي.. مع كون لغة العرض اللهجة العامية البغدادية وهي لغة الرواية الاصل في الكثير من حواراتها إلا اني عمقت هذا الجانب إلى جانب دلالات الفضاء الاخرى للعرض الشعبي العراقي كقطع الديكور والاضاءة والمؤثرات الصوتية التي اعتمدت البساطة الايحائية بجانب الدلالة المسرحية الموحية والمتوافقة مع الموقف الدرامي نفسه.

الكوميديا إلى جانب المأساة.. السياسة بجانب المشاكل الاجتماعية.. الحب والكره.. النفاق والوصولية.. الحلم والواقع.. الأزمة والعوز والحاجة.. الموقف والتلون.. التردد والجهر بالحق.. التضحية بصمت.. الندم ومحاولة معالجته.. التحدي مع تقديم خسارات كبرى.. البحث عن الخلاص.. هذه هي اهم الموضوعات التي ركزت عليها مسرحيتي في نص الاعداد أو العرض نفسه والمستوحاة جلها من النص الروائي الاصل..

وبعد:

تتكون المسرحية من خمس عشرة شخصية قدمها عدد من الممثلين واغلبهم من الفنانين المحترفين في المحافظة ومن تدريسيي الكلية إلى جانب الطلبة الذين تخرجوا قبل سنتين.. بينهم ثلاث ممثلات..

روايات غائب طعمة فرمان.. استعادة المدينة / استعادة النص

علي حسن الفواز

لا أعرف لماذا اتذكر غائب طعمة فرمان كلما جرى الحديث عن بغداد،المدينة الحزينة وبغداد الذكريات وبغداد الشاطيء والليالي الملاح،اذ تبدو هذه المدينة وكأنها اصبحت جزءا من تاريخ حكواتي، واصبحت المدونات والشواهد عنها الواحا غائرة في السحر والتلذذ،رغم انشدادها الى زمن شديد الجريان لم يترك على جسدها النافر بالانوثة الا شقوقا رطبة وبقايا جمال عتيق..

غائب طعمة فرمان مواطن بغدادي استثنائي،تسكنه المدينة حدّ الوجع والتذكر، و رغم انه غادرها مبكرا لكنها ظلت عالقة به مثل رقية يحملها اني استجار بالامكنة،مدوناً سرياً وعميقاً ليومياتها الحافلة بالسحر ابدا، حيث الامكنة المباحة والمغلولة،وحيث حيوات الناس الذين انخرطوا في تشكيل نسيج اجتماعي /شعبي يختزن مرارات الامكنة ذاتها وذاكرتها المرة،لكنه يحمل لها مذاقات وتوهجات توحي اليه بنوع من الروح الصاخبة بالحياة والاحلام!!! لا يمكن ان تتلمس رعشات جلدها الطيني الا من خلال الكشف والغوص في ازقتها المتلاصقة بحميمية وكأنها تمنح شبابيكها وشناشيلها المتقابلة احساسا ايروسيا غامضا بتبادل النظرات المختلسة او المناديل البيض او القبلات العجولة!! او ربما تتكشف عبر حواريها او حاناتها ومقاهيها عن ظلال عالقة مثل ايقونات (الادعية) تحاول ان تمسك الزمن وتعلقه على تخوتها او مزاغلها النابضة بنداء الارواح الحية واعترافات العشاق القلقة واللجوجة عند زوايا العتمة المكسورة لحظة هروب اضواء الشبابيك...

المدينة عند غائب طعمة فرمان هي مدينة العالم السراني الذي يختزن قلق شخصياتها وحرماتهم واحلامهم المجهضة،فهي تمور بحراك حي لكنه سري،اذ يتوزعه الفقراء،العشاق، المثقفون الهامشيون، الشقاوات، السكارى، البغايا،فنطازيو السياسة،واعتقده ايضا كان راصدا لتحولاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية،اذ ان حيوات ابطاله لاتتحرك في فراغ،بل انها تتحرك وتنمو في سياق زمني وفي اطار صراعات تجوهرت في روح المكان العراقي واستجابت للكثير من معادلاته...

في النخلة والجيران يبدو قاع المكان/ المدينة هو الفضاء الساخن الذي تتشكل عنده حيوات ضالة وصراعية،ياخذها الجوع والخوف والاحلام الى عوالم تنتهك فيها الروح وتفقد سكونها واطمئناناتها المغشوشة، انها روح في نوبة اغواء دائم، حيث العالم الخارجي الصراعي يمور بظلال الحرب والكساد والبطالة وحيث قاع المكان يعيش قلقه الساخن وحرماناته وعواءه الجنسي والانساني عبر ارواح شخوصه المفجوعة ومنها روح سليمة الخبازة وهي تفرش لحظاتها المضطربة كمفارقة في مواجهة كل تداعيات الزمن الخارجي،زمن الخطيئة والجوع والخيانة والموت، مثلما وجدها فرمان فضاء آخر لزمن سياسي في مرحلة ما بعد الحرب بكل تداعياته وتحولاته وفوضاه..وكذلك يفعل سعيد و عبد الخالق وحميد وابراهيم في رواية خمسة اصوات،اذ المكان الثقافي والسياسي الذي يصنعونه لهم كمقابل نفسي وايهامي يعادل ازمتهم الوجودية في وعي العالم، الرواية تجد في تقنية تعدد الاصوات مجالا لتعدد الرؤى والمصائر، اذ هم رغم تعدد مشاربهم واتجاهاتهم،الا انهم يلتقون في لحظة وصفية يكشفون من خلالها العالم المأزوم الذي يحاصرهم والذي لم يقترحوا ازاءه الا حلولا وهمية وفنطازية تذوب كلها في المكان الحسي،المجلة/ الحزب/ الملهى/ المبغى/ الحانة / الزقاق/ الغرفة الضيقة،هذه الاستعارات المكانية تتحول الى استعارات عالية تواجه المحيط الخارجي وشخصياته واجواءه النفسية والسياسية، وكأن فرمان اراد ان يجعل ابطاله حالمين فقط لانهم نتاج ازمة وجودية وسياسية واخلاقية لم تترك لهم الا الهامش الحياتي والاخطاء والاخفاق والخواء،ولاشك في ان توصيفه للمدينة السرية او القاع هو دلالة على ان صناعة المدينة السياسية في المعيش والرفاهية يبدأ من (الفوق) اذ يصنع السياسيون عوالمهم الباذخة واصحاب الاحزاب والكتّاب والصحفيون مناطق تعويضية حافلة بالاغواء دائما،بينما ابطاله/ شخوصه لايملكون سوى وعيهم المضطرب والمخدوع والموهوم باحلام الاخرين، لذا نجد ان الاماكن السرية التي يجترحها فرمان هي اماكن رغم شحوبها ورطوبتها الا انها اماكن غائرة بالسحر واللذات والايهامات الموحية....

وفي رواية (آلام السيد معروف) التي قال عنها الكاتب جلال الماشطة بانها تكشف عن الذخيرة القرائية الكبيرة لفرمان،نجده فيها يعترف ويبوح وربما يكشف عن وعي متعال في تلمسه للكثير من مناطق نائية في التاريخ والمعرفة والحسيات...

لا اظن اعادة قراءة (النص) الروائي كمادة سردية مهمة في بيان اهمية غائب طعمة فرمان لانه يملك قصب ريادة الرواية الفنية اولا وان يملك القدرة الفاعلة على اعادة انتاج الامكنة والشخوص وعلائقهما والتي تكشف عن ادق تفاصيل العالم الجواني للمدينة البغدادية، هذا العالم هو الذي يحتاج الى اعادة قراءته لان الرواية الفرمانية تقابل (النص) التاريخي لصيرورة حيوات المدينة، وهو الموضوع ذاته الذي كثر الحديث عنه مع نجيب محفوظ عند دارسين عرب واجانب،وربما كان اغفال غائب طعمة فرمان يعود لاسباب سياسية وتاريخية معروفة،فضلا عن طبيعة فرمان ذاتها بمزاجها وعزلتها وانطوائها..

ان وضع ما انجزه غائب طعمة فرمان في سياق تاريخي وثقافي يحتاج الى جهد حقيقي يعطي للرجل حقه اولا ويكسر وهما طالما ردده البعض بأن التاريخ الابداعي العراقي كان تاريخا شعريا فقط ولم يؤسس فيه الروائيون والقصاصون شيئا ثانيا، واعتقد ان هذا الجهد يمثل اعادة انتاج حقيقي ليس للخطاب الابداعي العراقي بقدر ما هو اعادة قراءة تاريخ الزمن الثقافي العراقي خلال عقود مهمة من سيرة هذا التاريخ ورصد تحولاته في المكان والنص، خاصة اذا عرفنا تأثيرات النص المديني في روايات فرمان على النص التصويري الذي لا يعدو ان يكون كله استعادات للمكان المديني،اذ ان فرمان كتب كل رواياته خارج العراق... لذا فانا استعيد روح المكان /روح بغداد النابضة بالحياة والقوة كلما اقرأ غائب طعمة فرمان، وكأننا سنبحث في تاريخنا الثقافي عن حلول اكثر واقعية لازماتنا السياسية التي تعصف بالمكان والنص ايضا،انها مفارقة حقا!